

**قواعد في الفقه السياسي الرشيد من
السيرة النبوية**



إعداد وبحث:

عباس أبو تيم شريفة

الفهرس

- 2.....مقدمة البحث
- 5.....تفكيك المؤامرة بمنطق المصلحة دون المفاصلة العقدية
- 5.....تميز المثل الأعلى (الخيال) عن الواقع الأدنى (الموضوعي)
- 6.....وترك المصلحة المتحققة لأجل الانضباط العسكري ولمصلحة أرجح منها
- 6.....فقه تحييد الخصوم وإدارة الصراع
- 8.....التعاون الجزئي في المساحة المشتركة حتى مع من نختلف معهم في الأصول
- 9.....مواجهة دعاية التشويه بالاستعراض الصامت
- إرجاء الهدف المقدر مع كثرة الخسائر وهشاشة المكاسب لحين تقل فيه الخسائر
- 10.....
- 11.....إظهار خطاب القوة والاستبشار في الوقت الحرج وواقع الاستضعاف
- 13.....نفي الدلالة المرفوضة وإثبات الدلالة المقبولة
- 13.....حدث نشأ بدلالة مقبولة، بعد تجريده من دلالة مرفوضة
- 14.....حدث قام علي حفظ وحدة الموقف، وهي من أخطر دلالات الموقف السياسي
- 15.....تذليل العقبات المحتملة بموقف لا يعود بالخسارة على الجماعة والدعوة
- 18.....اتخاذ الإجراء الذي يمنع التصرف الضار بالجماعة من أحد أفرادها
- 19.....إيجاد درع عسكري يحقق النكاية بالأعداء متصل عقدياً بالجماعة
- 20.....استدراج الخصم السياسي المعروف بالمرأوفة إلى التحدي المخرج
- 21.....استغلال الصلات الاجتماعية في تحقيق المكاسب السياسية
- 22.....الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين اللهم صلي على محمد وآله وصحبه وسلم الذي أرسلته رحمة للعالمين فأقام الدين وساس الدنيا فأعز الله أصحابه بالتمكين وبعد. نكتب هذه الكلمات بعد أن جنح كثير من المسلمين إلى طرفي نقيض:

- بين من ألغى العمل السياسي و أسقطه من حسابته وجعله رجس من عمل الشيطان وباباً للتنازل عن الثوابت فبالغ في سد الذرائع إلى درجة أن حكم على نفسه بالسجن المطبق.
- وبين من أغرق في السياسة الميكافيلية الذرائعية النفعية المتحللة من القيم فبالغ في فتح باب المصالح المرسلة فتجاوزها إلى المصالح الملغاة.

هذا البحث المتواضع نحاول الوقوف من خلاله على مواقف من السيرة النبوية نستخلص منها الدروس والعبر في الفقه السياسي الرشيد المتوازن.

إن قراءة الاجتزاء وقصور التدبر للسيرة النبوية بسبب القراءات الحزبية والإسقاطات التي تتوافق مع سياسة الجماعة عند كل الجماعات الإسلامية - ولا تكاد تخلص منها جماعة إسلامية - فهناك من يلقي الضوء على الجانب الجهادي، وهناك من الجماعات من تغرق في إسقاطات الجانب الدعوي، ومنها ما يضخم الجانب السياسي وكل ذلك قراءات حزبية بشكل اجتزائي من المشهد الكلي لشمول الدين والسيرة. هناك مشكلة في صنفين من الجماعات الإسلامية:

- صنف لا يخرج عن سقف (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة)
- وصنف لا ينزل عن سقف (واقتلوهم حيث ثققتموهم)

هناك من الجماعات الإسلامية من يلغي تدبر السيرة بحجة اكتمال الشريعة والعبرة بما استقرت عليه الحكم في نهاية اكتمالها وكل ما كان في زمن الضعف غداً من المنسوخ الذي لا يعمل به في حال ، وهناك من يراوح في تدبر المرحلة المكية ولا يقبل إلا بلنزال وصف الاستضعاف على الأمة وهناك من يتخبط فتارة يقيس على الحالة المكية وتارة على المرحلة المدنية وتارة بين بين ، والحق أن اكتمال الشريعة كأحكام لا يعني أن الظروف الموضوعية من القدرة والتمكين ونفي العجز والضعف مواتية لإقامة الشريعة كاملة أو على ما استقر من أحكامها. وبناء على ما سبق أقول إن تدبر السيرة النبوية مادة غزيرة في الفقه الحركي ولكن المراجعات دائماً يجب أن تكون مراجعة علمية للخطأ وليست مراجعات سياسية في فقه السيرة النبوية تستطيع تبرير كل الأخطاء ولكن ضابط العلم هو الضابط الأساس في فقه النص وإنزال النص على الواقع ، فليس تقسيم مراحل بناء الجماعات إلى مكية ومدنية هو قضية توقيفية ؛ والقياس على مراحل السيرة يكون صحيح إذا اتحدت العلة بين الفرع

والأصل بتخريج المناط وتحقيق مناط القياس ألا وهو التمكين من عدمه وما هي حدوده الدنيا وما هي حدوده العليا.

عجيب الاستدلال أن يُستدلّ بروايات السيرة على الشيء ونقيضه، فقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وكان منهم كعب بن مالك صاحب اليد الطولى في الإسلام، ومن جهة أخرى عفا عن حاطب بن أبي بلتعة البديري لما نقل الأسرار العسكرية إلى مكة وأهلها، فهذان الاثنان وقعا في خطأ يضرّ الدولة، وخطأ حاطب أشدّ من خطأ كعب، وهما صاحباً سبق في الإسلام، فمن العجيب في الاستدلالات الحركية المشتهرة أن يُستدعى مثال كعب رضي الله عنه حين يُراد الهجر والتشنيع ويُستدعى مثال حاطب رضي الله عنه حين يُراد العفو والإقالة، كل ذلك بشعور أو دون شعور بحجم التناقض الذي يقع فيه المستدلّ حين يستدلّ على الشيء ونقيضه من روايات السيرة باسم التأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولو أننا قلنا إن فعله عليه الصلاة والسلام كان بمراعاة المصالح السياسية والشؤون الداخلية، وهو بجموع أفعاله يرشدنا إلى تقدير الموقف حسب ما يصل إليه الإمام وأهل الشورى، لكان ذلك أولى وأحسن.

إن الجزء التشريعي في سيرته عليه الصلاة والسلام أشبه بالخيط الدقيق الذي يحتاج منا إلى تمييزه عن غيره حتى يتضح للمؤمن كيف يتأسى به، ويميز بين ما هو من أحكام الإمامة والتي لا تعتبر إلزامية وإنما صدرت عنه باعتباره إمام للمسلمين والتي يراعى فيها المصلحة في وقت من الأوقات، وبين ما هو من أحكام التبليغ العامة بوصفه مبلغاً عن الله تعالى.

تعريف السياسة اصطلاحاً: هي حكمة (الجماعة) وفق المنهج الرشيد المنشئة (لدولة) الدعوة العالمية (الخلافة) النيابة عن الله تعالى المقيمة (لحضارة) الحق، والتي هي عبادة الله وعمارة الأرض.

والسياسة لغة: ساس الدابة أو الفرس: إذا قام على أمرها من العلف والسقي والترويض والتنظيف وغير ذلك.

وأحسب أن هذا المعنى هو الأصل الذي أخذ منه سياسة البشر. فكأن الإنسان بعد أن تمرس في سياسة الدواب، ارتقى إلى سياسة الناس، وقيادتهم في تدبير أمورهم. ولذا قال شارح القاموس: ومن المجاز: سُئِنُ الرعية سياسة: أمرتهم ونهيتهم. وساس الأمر سياسة: قام به. والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. في تاج العروس (169/4)

لذلك ترى أن الحكمة الإلهية قدرت للنبي صلى الله عليه وسلم الاشتغال برعاية الغنم فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بعث الله نبياً إلا رعى

الغنم. فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرها على قراريط لأهل مكة) ليتيهاً من رعاية الغنم إلى رعاية الأمم.

قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم اللحم والشفقة.. لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح أحسن، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق.. وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة.. ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة..

❌ ولم ترد كلمة السياسة في القرآن الكريم

على أن السنة النبوية قد وجد فيها حديثاً تَضَمَّنَ ما اشتقَّ من السياسة، وهو الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون". قالوا: فما تأمرنا؟ قال: "فُوا بببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم". رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3455) عن أبي هريرة، ومسلم في الإمامة (1842)، وأحمد في المسند.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (1)

تفكيك المؤامرة بمنطق المصلحة دون المفاصلة العقدية

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة: أويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونسبي نساءكم فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم يريدون أن تقاتلوا بأبنائكم وإخوانكم؛ فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا.

وهذا الموقف يتضمن قاعدة سياسية هامة وهي توجيه أعداء الدعوة إلى اتخاذ الموقف المناسب للدعوة بمنطق المصلحة.

* "من كتاب التصور السياسي للحركات الإسلامية"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (2)

تميز المثل الأعلى (الخيال) عن الواقع الأدنى (الموضوعي)

ومن شهد الواقع ترك المزادات

فهذا رجل يزايد على جمع الصحابة رضوان الله عليهم، وروى الإمام البيهقي في دلائل النبوة أن رجلاً قال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (والله لو أدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركناه يمشي على الأرض)، فكان هذا الرجل ينسب التقصير إلى الصحابة في توقيره عليه الصلاة والسلام، فيقول: لو كنت أنا مكانكم ما تركته يمشي على الأرض، أي: لحملته على رأسي.

فقال له حذيفة: يا ابن أخي! أكنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا -أي: في يوم الأحزاب- وقد حفر كل منا لنفسه حفرة يدفن نفسه فيها من البرد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يأتيني بخبر القوم وهو معي في الجنة؟ قال حذيفة: والله ما قام أحد)، مع أن الصحابة كانوا يتسابقون على أقل من ذلك، ومع ذلك من شدة البرد ما استطاع أن يقوم أحد.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لديهم جلد عجيب، فالذي يذهب إلى مكة الآن ليحج لا يكاد يطبق الحر مدة خمسة أو ستة أيام مثلاً، وهم قد كانت هذه حياتهم بصفة مستمرة، فقد كان عندهم جلد إلى هذا الحد العجيب، ومع ذلك لا يقوم أحد؛ فلك أن تتصور شدة البرد التي كانت موجودة آنذاك!

قال: (والله ما قام أحد، فقال: من يأتيني بخبر القوم وهو معي في الجنة؟)

قال: فما قام أحد.. ثلاث مرات، قال حذيفة: فتقاصرت خشية أن يدعوني، فقال لي: قم يا حذيفة! قال: ففقت، ولم يكن من طاعة الله ولا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد،

قال: فدعا لي، وقال: اذهب إلى القوم وائتني بخبرهم، ولا تدعهم علينا.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (3)

وترك المصلحة المتحققة لأجل الانضباط العسكري ولمصلحة أرجح منها

حادثة حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- مع أبي سفيان

-رضي الله عنه- قبل إسلامه ويوم كان رأس الكفر في غزوة الخندق، عندما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحذيفة -رضي الله عنه-: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا)، قال حذيفة -رضي الله عنه-... ثم قال أبو سفيان: "يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل"، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فو الله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولو لا عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

فهذا رأس الكفر ولا شك أن من مصلحة الإسلام قتل رؤوس الكفر بشكل عام، إلا أنه في تلك الحادثة كانت مصلحة الإسلام تأجيل قتله للأسباب منها أنه قد يستنفر قريش، وترجع لقتال الرسول -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون معه أخذاً بثأر أبي سفيان، ومن هنا أبيع عدم قتله لتجنب المسلمين أمراً كان فوق طاقتهم.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (4)

فقه تحييد الخصوم وإدارة الصراع

المفاوضات مع غطفان لكسر الحصار عن المسلمين

لما اشتد على المسلمين البلاء جراء الحصار المفروض عليهم من الأحزاب، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وكتبوا في ذلك كتاباً، وأرسل الرسول لسعد بن معاذ وسعد بن عباد ليعتصم بهما، فقالا: يا رسول الله أمرٌ تحب فنصنعه؟، أم شيئاً أمرك الله به لئلا نعمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء

أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرئاً أو بيعاً، أحياناً أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا).

في هذه المفاوضات التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وغطفان نستخلص عدة دروس في فقه الموازنات:

الأول: الموازنة بين أصناف الأعداء لاختيار الحلقة الأضعف ليتم اختراق صفوفهم من خلالها، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يعرض المفاوضات على قريش ولا على اليهود لأنهم هم أساس الصراع، والحرب معهم حرب عقيدة ومبدأ ونزاع سياسي حاد، وإنما عرض المفاوضات على غطفان لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم أنها وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول صلى الله عليه وسلم الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقيادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: يتمثل في عرض الرسول ثلاث ثمار المدينة على غطفان مقابل أن تسحب جيوشها، وترجع إلى بلادها، وتخذل بين الأحزاب المتحالفة ضد المسلمين.

إن دفع المال للعدو مفسدةٌ تلحق بالمسلمين وهي مصلحةٌ للعدو يتقوى بها عليهم، ولكنه إن حقق مصلحةً كبرى أو أزاح عن المسلمين مفسدةً كبرى كان لا بد منه، وهذا ما ارتآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى أن دفع ثلاث ثمار المدينة لغطفان سيؤدي إلى مصلحةٍ كبيرةٍ تتمثل في فك حصارهم عن المدينة، وتخليصهم للأحزاب المتحالفة، خاصةً وأنه ليس باستطاعة المسلمين التصدي لهذه الأحزاب مجتمعة، وقد طال أمد الحصار، وقد تجلى هذا المقصد في قوله عليه الصلاة والسلام لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلاث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟».

وفي قوله لسعد بن معاذ : والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما).

وفي فعل الرسول عليه الصلاة والسلام إرشاداً للمسلمين إلى عدة أمور منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الأنبية والمستقبلية للإسلام.

ولكن الأمر لم يتم لأن السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عباد رفضا هذا الاتفاق بعدما علما أنه ليس بالوحي، وإنما هو من باب السياسة وكسر شوكة العدو، وهو مجالٌ رحبٌ للاجتهد واختلاف الآراء، وهو كذلك مجال الاختلاف في تحديد المصالح والمفاسد والترجيح بينها.

فالسعدان رضي الله عنهما رأيا أن لدى المسلمين من الهمة والروح المعنوية العالية ما تؤهلهم للاستمرار في الثبات في مواقعهم حتى تنكسر عزيمة المشركين أمام عزيمتهم، من غير أن يدفعوا شيئاً لهؤلاء الكفرة يتقون به على المسلمين أو يذلّوهم من خلاله، لذلك كان جواب سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرئاً أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وكانت نتيجة المعركة كما هو معلوم اندحار الذين كفروا بغیظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

مواجهة التحدي الأصعب مع تماسك وحدة الجماعة واجتماع الكلمة خير من مواجهة التحدي الأسهل مع تفرق وحدة الجماعة واختلاف الكلمة.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (5)

التعاون الجزئي في المساحة المشتركة حتى مع من نختلف معهم في الأصول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: ((والله لا تسألني قريش اليوم خطة فيها صلة الرّحم إلا أعطيتهم إيّاها))،

قال ابن القيم أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبُغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمةً من حُرّمات الله -تعالى-، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره،

فيعانون على ما فيه تعظيم حرمان الله -تعالى-، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ لله -تعالى- مُرضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانتته على ذلك المحبوب مبعوضٌ لله أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضع وأصعبها، وأشقَّها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة.

* "زاد المعاد في هدي خير العباد"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (6)

مواجهة دعاية التشويه بالاستعراض الصامت

في عمرة القضاء

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مكة، وطافوا بالكعبة، وأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بإظهار القوة والجلد في طوافهم وسعيهم، رداً على إشاعة قريش بأنهم ضعفاء قد أوهنتهم حمى يثرب، فسارعوا في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي، ليُظهروا للمشركين قوتهم .. وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان، ينظرون إلى المسلمين في طوافهم وسعيهم، ويتعجبون من قوتهم ..

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (7)

إرجاء الهدف المقدور مع كثرة الخسائر وهشاشة المكاسب لحين تقل فيه الخسائر وتعظم

المكاسب

في قصة صلح الحديبية

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعد رؤيا منامية إلى مكة مع أصحابه وهو عازم على أداء العمرة ولما وصل إلى الحديبية خلأت القصواء وحبسها حابس الفيل وجاء الوحي من الله تعالى إلى نبيه عن الكف من دخول مكة والسعي في الصلح فقال عليه الصلاة والسلام ويح قريش قد أكلتهم الحرب لا يسألوني خطة يصلون فيها الرحم إلا أعطيتهم إياها وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة صلح مع سهيل بن عمرو فيه شروط مجحفة في حق المسلمين، واعتبرها عمر بن الخطاب في حينها إعطاءً للذنية ، وقفل الرسول صلى الله عليه وسلم عائداً إلى المدينة وقد أمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا فتناقلوا في الأمر حتى فعل إمامهم.

وتأخر الفتح ثلاث سنوات بعد المعاهدة وقد علل البيان الرباني الخسائر المحتملة لو تم الفتح والقتال في حينها

قال تعالى (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّبُدْخِلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَيُّوْا لَعَدَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الفتح - 25)

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الفتح-24)،

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور ولكنه يعرف من هذه الآية السابقة عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كفّ الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (الفتح-22).

فيكون معنى الآية أنه لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات ما زالوا يقيمون بين المشركين يخفون إسلامهم تقية واستضعافاً أو لمصالح معينة لكونهم عيوناً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على المشركين وأنتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش وقد اقتحمت عليهم ديارهم والنصر لكم، لكن الله تعالى كفّ أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين، لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتل أو جرح فتصيبكم بسبب ذلك (معرة) أي ضرر وعار في الدنيا أو الآخرة، لأن المشركين سيعيرون المسلمين ويقولون أن هؤلاء مجرمون قساة لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يراعي حرمة بيت الله الأمن فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزيّل هؤلاء المؤمنون أي انفصلوا وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة (لَعَدَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا) من دون محذور، كما أن الفريقين متزايلون يوم القيامة فيحل العذاب بالكافرين.

والغرض الآخر الذي لوحظ في تجنب القتال وكفّ الأيدي عنه هو قوله تعالى {لِيُبْدِخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} الفتح : 25 أي لإعطاء مزيد من الوقت والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وسط قريش ويأووا إلى كهف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرحيم، أو حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئاً أكيداً، فلو تزيّل هؤلاء أي تحقق الغرض بهداية من يريد الله تعالى هدايته وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذي كفروا، **فالكفّ عن القتال يحقق مصلحتين:**

1- دفع الخطر عن المؤمنين غير المعروفين ودفع المعرة عن المسلمين . (المفسدة المحتملة).

2- إعطاء الفرصة لهداية المزيد من الأعداء للإيمان. (المصلحة المتحققة)

لذلك سمى الله تعالى الحديبية فتحاً ، وجاء في سورة النصر (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا).

فدخول الناس في دين الله أفواجا ما كان ليتم لولا صلح الحديبية وما كان بعدها من عمرة القضاء ولو دخل عليهم بقتال لكانت الغلبة والنصر للمسلمين ولكن حتى تفنى قريش عن بكرة أبيهم ومع هلاك من يستخفي بإيمانه من المستضعفين.

لذلك قضت حكمة الله تعالى إرجاء الفتح مع أنه هدف مقدور ثلاث سنوات حتى لا تقع المعرة بوقب مسلمين مستخفين بإيمانهم ولكي تتفتح قلوب قريش للإسلام فتضاعف عدد المسلمين من الحديبية إلى الفتح عشرة أضعاف ودخلوا مكة بدون قتل وخسائر فأسلموا عن بكرة أبيهم.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (8)

إظهار خطاب القوة والاستبشار في الوقت الحرج وواقع الاستضعاف

والتنبيه إلى الزلل والثغرات في وقت النصر وواقع الاستقواء

في قصة الخندق

عن البراء بن عازب الأنصاري ، قَالَ : لَمَّا كَانَ حِينَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَفْرِ الخَنْدِقِ ، عَرَضَ لَنَا فِي بَعْضِ الخَنْدِقِ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ شَدِيدَةٌ ، لَا تَأْخُذُ فِيهَا المَعَاوِلُ ، قَالَ : فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَلَمَّا رَأَاهَا أَحَدَ المَعْوَلِ وَقَالَ : " بِسْمِ اللَّهِ " ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا ، فَقَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ " ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ ، فَقَطَعَ ثُلُثًا آخَرَ فَقَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَ المَدَائِنِ الأَبْيَضِ " ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : " بِسْمِ اللَّهِ " ، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ ، فَقَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي السَّاعَةِ " . دلالات النبوة للبيهقي رقم الحديث: 1335

تخيّل عشرة آلاف يحيطون بالمدينة المنورة إنها ضائقة شديدة جدًّا، والرسول في وسط هذه الضائقة وهم في مخمصة وخوف وجوع وبرد يطلق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه البشارات وينتقل بهم من واقع ضعفهم إلى أفق بعيد من وراء سجوف الغيب ليحدثهم عن النصر والظفر فترتفع معنوياتهم كيف يكون رد المسلمين وهم يسمعون بشارات النبي وهم في هذه الضائقة؟ قال المؤمنون كما وصفهم الحق تبارك وتعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ

الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا { [الأحزاب: 22].

المسلمون في هذه الضائقة علموا أن نصر الله قريب؛ لأن نصر الله يأتي بعد اشتداد الأزمات. أما المنافقون فلما رأوا الفجوة الواسعة بين إمكانيات المسلمين وإمكانيات الأحزاب، قالوا كما أخبر الحق تبارك وتعالى عنهم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: 12].

وكانوا يقولون إن محمد يعدنا أن نأكل كنوز فارس وأحدنا لا يأمن على نفسه الخروج للخلاء.

وفي الصورة المقابلة الواقع قوة والخطاب تحذير وتنبيه سمع الناس في عهد الرسول بمقدم أبي علاء الحضرمي من البحرين بأموال معه، فتجمعوا حول الرسول، فقالوا: ((فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على الذين من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)) رواه البخاري

هكذا كان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام يحذر الناس والأخيار في عهده من انفتاح الدنيا عليهم والاعتزاز ببهرجتها ومتاعها الزائل الحقير، ومن غلب عليه حب الدنيا فإن النتيجة الطبيعية الهلاك؛ هلاك المجتمع، وهلاك الأشخاص..

لذلك تجد الخطاب الرباني بعيد بدر وهي نصر عظيم ويوم الفرقان يبدأ بالتنبيه إلى الثغرات والأخطاء التي ظهرت من الاختلاف على الغنائم،

قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (1) الأنفال

وتجد بعيد هزيمة أحد، والفضل بعد الظفر، يبدأ الخطاب الرباني بتضميد الجراح وتسليمة المؤمنين،

قال تعالى (إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (140) آل عمران

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (9)

نفى الدلالة المرفوضة وإثبات الدلالة المقبولة

وفي غزوة أحد حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الغزوة وجمع المسلمين حوله ليردوا علي أبي سفيان الذي أراد أن يحقق نتيجة سياسية للغزوة...

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: " لا تجيبوه " فقال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: " لا تجيبوه ". فقال أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك! قال أبو سفيان: أعلى هبل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أجيبوه ". قالوا: ما نقول؟ قال " قولوا: الله أعلى وأجل ". قال أبو سفيان. لنا العزي ولا عزي لكم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أجيبوه " قالوا ما نقول؟ قال " قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم ". قال أبو سفيان يوم بيوم بدر، والحرب سجال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أجيبوه "! قالوا: ما نقول؟ قال " قولوا: قتلنا في الجنة، وقتلناكم في النار " .

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار ورائهم بالجيش وأقام ثلاث ليال حتى سميت غزوة حمراء الأسد.

وكان في هذا أيضاً نفي دلالة مرفوضة وإثبات دلالة مقبولة.

فالوقوف بعد أحد ثلاث لنفي دلالة مرفوضة وهي قبول الهزيمة وإثبات دلالة مقبولة وهي الإصرار على مواصلة الجهاد بعد حرمان العدو من تحقيق أي نتيجة سياسية لصالحه

* "من كتاب التصور السياسي للحركات الإسلامية"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (10)

حدث نشأ بدلالة مقبولة، بعد تجريده من دلالة مرفوضة.

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد: إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم علي شاكراً، وإن كنت تريد المال فاسأل ما شئت، فترك حتى كان الغد ثم قال له، ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك: إن تنعم علي شاكراً، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير.

فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلي نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ...

والملاحظة الأساسية في الحديث أن ثمامة ذكر الدم في اليوم الأول؛ ولذا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوطاً؛ لأنه لو تركه بعد ذكره الدم لكان معني الموقف هو الطمع في الدية أو الفداء. وفي اليوم الثالث لم يذكر ثمامة الدم أو المال فقال: عندي خير فقال أطلقوا

ثمامة. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والبيهقي وأحمد، والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (205/1)

إن القاعدة السياسية التي يتضمنها هذا الموقف هي شرط جوهرى في الممارسة السياسية وإنشاء الموقف السياسي وهو: الوضوح ومعناه أن يكون للموقف تفسير واضح لا يحتمل غيره ولذلك ترك رسول الله ثمامة حتى أصبح لإطلاق سراحه تعبير واحد ومعنى واحد هو الإكرام الذي لا يختلط به معنى الطمع في الدية أو الخوف من الثأر.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (11)

حدث قام على حفظ وحدة الموقف، وهى من أخطر دلالات الموقف السياسي.

لما غدر يهود بني قريظة بالمسلمين في غزوة الخندق وتحالفوا مع المشركين كان لابد من إجلائهم؛ لأن وجودهم كان مرهوناً بالمعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن تحالف اليهود مع الأنصار قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم والذي لم يزل قائماً بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كان يمثل مشكلة خطيرة...

فالواجب إجلاؤهم وقتالهم... وهم حلفاء الأنصار في نفس الوقت... فما الموقف...؟

كان الموقف السياسي هو إحالة أمرهم إلي الأنصار ذاتهم... فطلب منهم رسول الله أن ينزلوا على حكم من يختارون. وكان من الطبيعي أن يكون اختيارهم من الأنصار باعتبارهم حلفاءهم؛ فاختروا سعد بن معاذ سيد الأنصار.

وكما تقول كتب السيرة: " فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت... "

فلما كلمته الأوس قال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ... فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤوا له بوسادة من آدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم؟ فلما أكثروا عليه قال: لقد أن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلي دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

* "من كتاب التصور السياسي للحركة الإسلامية رفاعي سرور"

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا إلي سيدكم... فقاموا إليه، فقالوا يا أبا عمرو، إن رسول الله قد أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ها منا، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. حدث قام على حفظ وحدة الموقف، وهي من أخطر دلالات الموقف السياسي.

أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (6/191/ح 3043) مختصراً، ورواه أحمد بطوله، وذكره الهيثمي في المجمع، وقال الحافظ في الفتح (11/51) بعد أن عزاه لأحمد: وسنده حسن.

* "من كتاب الصور السياسي للحركات السياسية"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (12)

تذليل العقبات المحتملة بموقف لا يعود بالخسارة على الجماعة والدعوة وإرفاقه بالحزم والتهديد غير المباشر

كان العباس صديقاً قديماً لأبي سفيان، ويرى الأزمة التي وضع فيها أبو سفيان، ويرى الانهيار الذي تعرض له؛ لذلك طلب العباس من الرسول أن يُخرج أبا سفيان من هذه الأزمة، فقال: "يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً". [1] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص403.

وهنا بدأ الرسول يفكر في الأمر، فمن الواضح أن أبا سفيان أسلم اضطراراً، ولم يقتنع بعد بالنبوة، وإن لم يشعر بالانتماء الحقيقي للنظام الجديد، فقد ينتهز أي فرصة للانقلاب على المسلمين، وأبو سفيان عظيم مكة منذ عدة سنوات، وإن لم ينزله منزله، فإن هذا سيؤثر سلباً في أبي سفيان، وفي أهل مكة جميعاً. ثم إن الرسول إذا أعطى أبا سفيان شيئاً فسوف يستخدمه لصالح الإسلام، ويكون أبو سفيان من رجاله وولاته بدلاً من أن يكون من أعدائه، وقد يرى ذلك بقية زعماء مكة، فيطمعون في شيء من سلطان المسلمين.

وقرر الرسول أن يعطي أبا سفيان شيئاً، والرسول في ذلك الوقت لا يملك مالا كثيراً يليق بزعيم مكة، ولا يستطيع أن يعده بإمارة؛ لأنه لم يتأكد بعد من صدق إيمانه، بل على العكس

فالظاهر أنه قد أسلم مضطراً، وقد يؤذي المسلمين بإمارته، سواء على مكة أو على غيرها؛ لذلك فكر الرسول في إعطائه شيئاً ينفع ولا يضر، فقال الرسول: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ"

[2] رواه أبو داود (3022)، وحسنه الألباني.

وخصَّ الرسول أبا سفيان بخصيصة تجعله متميزاً على أقرانه من أهل مكة، وهي أن داره أصبحت مأوى لأهل مكة، وأماناً لهم. ولكن المتدبر في الأمر يجد أن الرسول أعطاه شيئاً بلا خسارة، وهذا الشيء لا يقدر ولا يؤخر عند المسلمين، فهو يكسب قلب أبي سفيان؛ لأن أي إنسان يغلق عليه بابه سيكون في نفس الأمن الذي في دار أبي سفيان، فلا ميزة واضحة، ولكن هذا الأمر قد أحدث نوعاً من الفخر الشرفي، ينفع ولا يضر.

وهنا نجد التوازن الرائع من الرسول في التعامل مع أبي سفيان، وسوف يدخل أبو سفيان بهذه المنحة التي أعطاهها له الرسول إلى مكة دافعاً للناس أن يدخلوا بيوتهم، وألاً يقاوموا، وفي هذا تسكين لثورة الغضب في داخل مكة المكرمة، وفي هذا تسهيل لفتح مكة المكرمة دون خسائر كبرى؛ فهي حكمة سياسية هائلة، وفقه دعوي على أعلى مستوى.

وهنا نجد ذكاء الرسول في التعامل مع أبي سفيان، فقد خاطب أبا سفيان في البداية بالقوة والحسم، ثم بعد إسلامه أعطاه شيئاً يفخر به، ويمتلك به قلبه مع عدم فقد الدولة الإسلامية لشيء.

حوار بين العباس بن عبد المطلب وأبي سفيان

أراد الرسول ألا يترك أي فرصة للشيطان يدخل بها إلى قلب أبي سفيان، فقد يكون إسلام أبي سفيان إسلاماً عارضاً؛ للخروج من هذا المأزق، فأراد الرسول أن يزلزل معنويات أبي سفيان حتى لا يبقى عنده أي أمل في المقاومة، فماذا فعل الرسول الحكيم؟

أمر الرسول العباس بن عبد المطلب أن يقف بأبي سفيان عند مكان ما ليشهد الجيوش الإسلامية، وأعدادها، وعدتها، وتنوع أفرادها، وتعدد قبائلها. لقد أراد الرسول أن يريه الأحزاب المؤمنة، وشتان بين هذه الأحزاب والأحزاب التي قادها أبو سفيان قبل ذلك؛ ليعلم أبو سفيان أنه لا طاقة له بهؤلاء، قال رسول الله للعباس: "يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ حَطْمِ الْجَبَلِ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا" [3] ابن كثير: السيرة النبوية 549/3.

والعباس نفذ الأمر النبوي، وأخذ أبا سفيان ووقف عند المنطقة التي ذكرها الرسول، ووقف أبو سفيان يشاهد العرض العسكري الإسلامي المهيب، وانبهر أبو سفيان؛ فقد كان أملاً في المقاومة، وقد شاهد أبو سفيان هذه الأعداد منذ ثلاث سنوات تقريباً في غزوة الأحزاب،

وكان هو يرأسهم جميعاً، ورأى أبو سفيان في هذه الجيوش عدة قبائل كانت تربطه بها علاقات قوية، ولم يكن بينه وبينها عداً يذكر، فإذا بهذه القبائل جميعاً تجتمع تحت راية رسول الله. ورأى أبو سفيان وحدة الصف واجتماع الجميع على قلب رجل واحد؛ فقد رأى أبو سفيان الألفة والمودة والصلابة التي في عيونهم، وفي تصميمهم، وفي مشيتهم، وهذا كله زلزل أبا سفيان. إن انبهار أعداء الأمة بالصف المسلم المتحد أمرٌ لا يُنكر كما رأينا، ولننظر إلى وصف العباس لحالة أبي سفيان عند رؤية الجيوش الإسلامية، يقول العباس: ومرت به القبائل على راياتها، كل قبيلة تسير رافعة الراية، فكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: من هؤلاء؟

فأقول: سليم.

فيقول: ما لي وسليم؟ أي: لماذا تأتي سليم وتحاربني؟ أو كيف طاقتي وسليم؟ فتمر القبيلة الأخرى فيقول: من هؤلاء؟

فأقول: مُزينة.

فيقول: ما لي ولمزينة؟

وهكذا كلما مرت قبيلة سأل من هؤلاء، فيرد العباس: بنو فلان وبنو فلان، فيقول: ما لي ولبنو فلان. حتى مر رسول الله في الخضراء، والخضراء كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منها إلا الحدق. يعني الكتيبة مغطاة بالدروع والسلاح، لا ترى إلا أعينهم من خلال الدروع، قال أبو سفيان -وهو في أشد حالات الانبهار-: من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.

فقال أبو سفيان في منتهى اليأس: ما لأحدٍ بهؤلاء قبلاً ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة.

فقال: فَنَعَمْ إِنْ [4] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص404.

لقد اقتنع أبو سفيان أخيراً أنها النبوة.

أبو سفيان يدعو قريشاً للدخول في الإسلام خرج أبو سفيان حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم بما لا قبيل لكم به.

وهنا يتحقق غرض الرسول من إعطائه هذا الفخر، ونجد أبا سفيان يمنع قريشاً من المقاومة؛ ليحقن دماء قريش، وفي الوقت نفسه يحقن دماء المسلمين. إنه الفقه السياسي العالي من الرسول .

ثم قال: فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ولم يقل: ومن دخل داره، ومن دخل المسجد، واكتفى بالجانب الذي يُعطي من شأنه؛ ليظهر فخره.

فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، وهي من أشد المقاومين للإسلام، ومن أشد المحاربيين له، فأخذت بشاربه وقالت للجميع: اقتلوا الدِّسَمِ الأَحْمَسَ، قُبْح من طليعة قوم!

فهي تسبُّ زوجها أمام الناس، فقال: ويحكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقال له أهل مكة: ويلك! فما تغني عنا دارك. أي: إن دارك لا تتسع لأهل مكة كلهم. فقال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس ودخلوا إلى ديارهم، وإلى المسجد [5] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص404، 405.

وهذا موقف أبي سفيان، فقد أصبح في نهاية اليوم مدافعاً عن دخول الرسول إلى مكة المكرمة، فاتحاً له الطريق.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (13)

اتخاذ الإجراء الذي يمنع التصرف الضار بالجماعة من أحد أفرادها بإجراء يراعى الحرص على تماسك الجماعة

دخلت الجيوش الإسلامية كما خطط لها رسول الله ، ومكث معظم أهل مكة في بيوتهم، وكانت شوارع مكة في الأغلب خالية من المارة، وكانت رغبة الرسول الأكيدة ألا يحدث قتال، وخاصةً في هذا البلد الحرام، وأحب البلاد إلى قلبه. ومع وضوح هذه الرغبة في كلام وأفعال الرسول إلا أن بعض الصحابة كانت تراودهم أحلام الانتقام ممن أذاقوا المسلمين العذاب ألواناً، ومن ذلك مثلاً ما قاله سعد بن عباد -سيدّ الأنصار وقائد كتيبة الأنصار- في حماسة وهو يدخل مكة: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة".

وهذه الكلمات تعبر عن رغبة في القتال، مع أن هذه الكلمات لها خلفية شرعية، ولها منطق مقبول إلا أنها لا ترضي الرسول، والخلفية الشرعية لكلمة سعد بن عباد أن الرسول قال عن مكة: "وإنَّهَا أُجِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ" [7]؛ أي أن القتال في ذلك الوقت قتالٌ شرعيٌّ. ولكن الرسول كان يريد عند الاضطرار فقط؛ فالأصل ألا نقاتل، ولكن المنطق كان عند سعد بن عباد منطق مفهوم ومقبول، ومنطقه كان يؤيده هذا الأمر في رأي العموم من

الناس؛ لأن مكة الآن محكومة بأهل الكفر وقتالهم واجب، وهؤلاء هم الذين عذبوا المؤمنين، وهم الذين أخرجوا الرسول، وهم الذين آذوه هو وأصحابه قبل ذلك، بل إن سعد بن عبادة نفسه تعرض لأذى قريش بصورة مباشرة في بيعة العقبة الثانية؛ ففي آخر البيعة أمسك المشركون بسعد بن عبادة وضربوه ضرباً مبرحاً مع كونه سيد الخزرج، ومن الشخصيات المهمة في الجزيرة العربية، فلا شك أن هذه الحادثة تركت في نفسه أثراً، فأراد أن يعاملهم بالمثل.

ومن ثمَّ قال مثل هذه الكلمات. غير أن الرسول لم يكن يريد قتالاً، ووصلت إليه كلمة سعد بن عبادة عن طريق أبي سفيان، وأبو سفيان قد أصابه الرعب عند سماع كلمة سعد بن عبادة، وأسرع إلى الرسول يستوثق من أمر الأمان لأهل مكة، فقال عندما سمع هذه الكلمات: "الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، هَذَا يَوْمٌ يَعُظُّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكُعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكُعْبَةُ" [8].

صحح الرسول المفاهيم، ولم يكتفِ الرسول بذلك، فقد خشي أن يأخذ سعد بن عبادة فرقتَه من الأنصار بهذه الروح القتالية، ويتساهل في أمر القتال؛ لذلك نزع الراية منه، وأعطاه لابنه قيس بن سعد، في فقهٍ دعويٍّ؛ إذ أراد الرسول أن يطيب خاطر سعد بن عبادة بحيث لا يؤثر ذلك في نفسيته، وهو زعيم الخزرج، فأعطى الراية لقيس بن سعد بن عبادة، وكان قراراً في منتهى الحكمة أرضى به كل الأطراف؛ فقد أرضى سعد بن عبادة، وأرضى نفسه بتنفيذ القرار: ألا يقاتل إلا من قاتل، وأرضى أبا سفيان الذي اشتكى إليه هذه الكلمة القاسية عليه، وخاصةً أنه قد أعطى أماناً لأهل مكة.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (14)

إيجاد درع عسكري يحقق النكاية بالأعداء متصل عقدياً بالجماعة ومنفصل سياسياً وتنظيمياً

لتحقيق الاستقرار السياسي والحفاظ على العهود والمواثيق وتحقيق الضغط العسكري بنفس الوقت،

رَجَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْحَدِيثِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلْبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا فَاسْتَلِّهُ الْآخِرُ، فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخِرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ رَأَاهُ: "لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا"، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ

صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "وَيْلٌ أُمَّهُ مِسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" (قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "ويل أمه": كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من ذم. وقوله: "مِسْعَرٌ حَرْبٍ" أي: مشعل نار الحرب مما فعله من قتل الرجل، وقوله: "لو كان له أحد" أي: ينصره ويعاضده ويناصره، وفيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلى المشركين، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين المستضعفين في مكة أن يلحقوا به.)، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْقَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَفَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أُرْسِلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَيْهِمْ

صحيح: أخرجه البخاري (2731، 2732)، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

وبذلك اوجد النبي صلى الله عليه وسلم لدولة المدينة دراعاً عسكرياً يضرب العدو بدون ارتباط تنظيمي أو سياسي ويحقق فيهم الإنهاك مع المحافظة على العهود والمواثيق السياسية وبدون تدخل من دولة المدينة.

وأكثر من أجاد بهذا الأسلوب في هذا العصر هي إيران حيث أوجدت لنفسها مخالبا في كثير من الدول تنظيمياً تابعة لدولها وعقيدة تدين بالولاء للولي الفقيه.

بينما كانت الدول السنية من فرط الغباء السياسي أداة لسحق كل حركة جهادية سنية

من القواعد السياسية في السيرة النبوية (15)

استدراج الخصم السياسي المعروف بالمرَاوغة إلى التحدي المخرج

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَحْتَرِفُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي سَأُتْلِكُ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ أَنفَا أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْسُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ

وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيزَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ وَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ». قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهَتُوا وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بِيَهْتُونِي فَجَاءَتْ الْيَهُودُ فَقَالَ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا فَأَنْتَقَصُوهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

وبذلك حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعهم أمام خيار محرج فسقطوا بتناقضهم وكشف زيف مواقفهم المضطرب والمرهون للعصبية والجحود و التكنذيب لمن أقرؤا به سيدهم عليهم، بينما كان موقف عبد الله بن سلام موقف المتحري الصادق الذي يبحث عن الحقيقة

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية (16)

استغلال الصلات الاجتماعية في تحقيق المكاسب السياسية

جاء في غزوة المريسيع عن عائشة، رضي الله عنها قالت: أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق، فأخرج الخمس منه، ثم قسمه بين الناس وأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً، فوقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري رضي الله عنه، وكانت تحت ابن عم لها يقال له صفوان بن مالك بن جذيمة فقتل عنها، فكانت بها ثابت بن قيس على نفسها على تسع أواق وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينما النبي صلى الله عليه وسلم عندي إذ دخلت جويرية تسأله في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيته حتى كرهت دخولها على النبي صلى الله عليه وسلم وعرفت أن سيرى فيها مثل الذي رأيت فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومهم وقد أصابني من الأمر ما قد علمت فوقع في سهم ثابت بن قيس، فكانت بي على تسع أواق في فكاكي، فقال: " أو خيراً من ذلك " قالت: ما هو؟ قال: " أودى عنك كتابتك وأتزوجك " قالت: نعم يا رسول الله قال: " فقد فعلت " فخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترقون، فأعنفوا من كان في أيديهم من سبي بني المصطلق فبلغ عنقهم مائة أهل بيت يتزوج إياها، قالت عائشة: فلا أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها وذلك منصرفه من غزوة المريسيع أخرجه الحاكم في المستدرک

وكان الهدف من زواج رسول الله من جويرية بنت الحارث الطمع في إسلام قومها، وقد تحقق هذا الهدف السامي، فأعز الله المسلمين بإسلام قومها. وكان للرابطة الاجتماعية التي

أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدور الأكبر في تحقيق المكسب السياسي واستمالة عشيرة بأكملها إلى الدخول في الإسلام..

خاتمة:



عباس شريفة (ابو تيمم)

مهتم بقضايا التنمية البشرية والفكر الإسلامي والمشروع الحضاري
بلاد الشام

سياسة شرعية

- صلى رسول الله ﷺ وطاف حول الكعبة وحولها 360 صنم.
- في صلح الحديبية: محاً رسول الله ﷺ كلمة "بسم الله الرحمن الرحيم" وكتب مكانها "باسمك اللهم"
- ومحاً محمد رسول الله ﷺ وكتبت محمد بن عبد الله. وذلك في مفاوضاته مع سفير المشركين سهيل.
- بعد عودته ﷺ من الطائف دخل مكة في جوار مشرك وحمايته وهو المطعم بن عدي ولم يدخل بجوار مسلم بل ولم يستعجل المواجهة مع قريش
- تحالف ﷺ مع بعض المشركين وعقد معاهدات معهم؛ ومن أشهرها حلفه مع خزاعة الذي كان سبباً لفتح مكة بعد أن نقضت قريش الصلح
- امتنع رسول الله ﷺ عن قتل بعض المرتدين وعلى رأسهم زعيم المنافقين ابن أبي سلول؛ والسبب حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه
- أخذ رسول الله ﷺ السلاح إجارة من صفوان بن أمية وهو مشرك ليستعين به في غزوة حنين وأعطاه العطايا الكثيرة الكثيرة حتى أسلم
- عفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة من المشركين بعد أن قدر عليهم دون أن يشترط عليهم الإسلام وهم من قد حاربه وسماوا الطلقاء
- خاطب ﷺ ملوك الأرض في زمانه ووصفهم بما يليق بحالهم رغم كفرهم وشركهم بالله، ومنه قوله (إلى هرقل عظيم الروم) ولم يستعدهم
- فكر رسول الله ﷺ جدياً وصرح بأنه يريد أن يعطي المشركين من غطفان ثلث ثمار المدينة لينفضوا عن قتاله ويفرق جمع الأحزاب
- أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم إتفاق الحديبية مع المشركين وفيه شرط أن من جاءه مسلم يرده للمشركين ولا يستقبله في المدينة